***فن الخطابة***

***توطئة***:

تعرف الخطابة بأنها فن مخاطبة الجمهور، وهي كلام بليغ يلقى في جمع من الناس لإقناعهم بأمر ، أو استمالتهم إلى مبدأ ما. وقد شهدت الخطابة رواجاً وازدهاراً في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي، وذلك لتوفر عوامل ازدهارها، ولأهميتها وقوة تأثيرها، ولتوفر حرية القول خاصة. وقد اختلفت الخطابة في العصر الإسلامي عن نظيرتها في العصر الجاهلي، إذ تغيرت في أسلوبها ومحتواها نظرا للعقيدة الجديدة وطريقة نشرها، ولكنها رجعت في العصر الأموي إلى سالف عهدها لعودة العصبية القبلية ولانتشار الأحزاب السياسية المتصارعة. وقد استمر الصراع أيضاً في عهد العباسيين، وتنوعت الثقافة العربية بتنوع مشاربها، فحافظت الخطابة على مكانتها ومستواها الفني الرفيع في بداية العصر. لكنها ما لبثت أن خفتت لأسباب عدة، أهمها انعدام الحرية التي تؤدي إلى ازدهارها وقوتها، وكذا منافسة فنون نثرية أخرى لها، وخاصة منها الفنون النثرية المكتوبة.

وحين تدهور الأدب في عصر الانحطاط باتت الخطابة تقليداً أكثر منه إبداعاً، ومالت إلى الرتابة فظهر التكلف في أسلوبها وطابعها العام، واختصرت أغراضها على المناسبات الدينية.

***الخطابة الجزائرية بعد الاحتلال***: لم تستمر الخطابة على هذا النحو في الجزائر بعد الاحتلال، وذلك لظهور عدة مثقفين وشخصيات امتلكوا ناصية القول، وأدركوا دور الخطابة في الدعوة إلى الجهاد

واستنفار الذين يحاربون الأعداء، خاصة وأن فترة الاحتلال تساعد عل هذا اللون من النثر. وعلى رأس هؤلاء الأمير عبد القادر الذي اشتهر بخطبه الجهادية والدينية.

والنماذج التي وصلتنا من تلك الفترة تدل على أن الخطابة تحررت من أسلوب السجع المتكلف المقصود لذاته، ومالت إلى البساطة في التعبير والقصد في القول دون إطناب. إلا في

المناسبات التي تتطلب الكثير من الإقناع. فخاصية الحماسة في تلك الخطب من أبرز السمات التي نلحظها في إنتاج الخطباء في ذلك العصر لأن الخطيب كان في موقف يحتاج معه إلى أن يدعو الناس إلى القتال، ومكافحة الفرنسيين الغزاة. وهناك خاصية أخرى بارزة وهي النظرة الدينية التي كانت تطغى على تلك الخطب. أما الخاصية الثالثة التي نلحظها فيها، فهي أن أسلوبها واضح (وضوح الأسلوب) ـ لا تكلف فيه، وأن السجع يأتي تلقائياً والعناية به ليست مقصودة.

وعلى العموم فالخطباء في تلك المرحلة خطوا بالخطابة خطوة طيبة من حيث الصناعة فتحررت من الركاكة والتعقيد، وأصبحت فنّاً هدفه الإبانة والإفصاح عن الرأي لا التلاعب بالألفاظ والتقليد الجامد للأقدمين.

إن الحرب ضد المستعمر، وظروف الصراع أسهمت أن تصبح وظيفة الخطابة هي التعبير عن قضية وطنية، أو عن عقيدة روحية بعد أن كانت قبل الاحتلال تعبيراً عن موضوعات مستهلكة متكررة. فالأمير عبد القادر في إحدى خطبه يوضح موقفه من الاستعمار الذي نقض إحدى المعاهدات، ويوضح موقفه أيضاً تجاه الحرب والسلم، فلم يجد سوى الأسلوب الحماسي الذي يحث على القتال طريقاً لاستنهاض الهمم، وبعث النخوة في النفوس، مستشهداً بالقرآن والحديث. يقول:"... أما بعد: فلا يخفى أن الله تعالى قال في كتابه المجيد{ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذي يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة }. وقال{ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله }. فالبداية بالقرآن تحرك همم الجنود وتساعد على التأثير في نفوسهم، وتهيّئهم لأن يقتنعوا بالأفكار التي حث فيها على قتال العدو الفرنسي، بعد أن نقض العهد. يقول: "وهؤلاء القوم قد عاهدناهم فنكثوا، وصقدناهم فغدروا، وصابرناهم فلم يصبروا، وإن تركناهم وشانهم فلا تلبث أن نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة ".

نلاحظ من خلال هذه التعابير أن الأمير متأثر بأسلوب علي بن أبي طالب وطريقته في مراعاة الفواصل والمقابلة بين الكلمات، والعناية بتوليد الصيغ والمعاني. وإذا لاحظنا السجع فإنه غير متكلف، كما أنه ليس عاماً في خطبه وليس مقصوداً لذاته. ثم إن الأمير لا يطيل في خطبه ولا يطنب، بحيث لا تحي بالملل حين تقرؤها وإنما يوجز بصورة واضحة.

***الخطابة بعد الأمير***: ضعفت الخطابة وتدهورت أحوالها بعد الأمير، وذلك تبعاً لتدهور الظروف المتصلة بالحياة الأدبية والثقافية والفكرية والسياسية. فقد هيمن المستعمر على الواقع وكان تأثيره قوياً على أداة الخطابة، أي على اللغة العربية التي ضعفت، بل كادت تختفي من الحياة الأدبية والثقافية، الأمر الذي أثر في أسلوب الخطابة، كما أثر في أسلوب غيرها من الفنون الأدبية والنثرية خاصة بعد منتصف القرن التاسع عشر. وكان أن انحصرت الخطابة في المساجد والزوايا، وباتت تقليداً لعصور الانحطاط، بل أشد ضعفاً منها من حيث أسلوبها أو موضوعاتها. ولكن بعد أن انتشرت الأفكار الإصلاحية، واتصلت الجزائر بمن حولها، ونشأت النوادي والجمعيات الثقافية، وانتشرت الصحافة الوطنية، ظهرت الخطابة بوجه آخر متطورة في أسلوبها ومضمونها وموضوعها.

لقد كانت الخطابة أداة صالحة لإذاعة أفكار جمعية العلماء المسلمين ومبادئها بين الناس، ولأن بث الفكرة الإصلاحية يتطلب قدرة على الإقناع، واتصالاً مباشراً بالجماهير في شتى أنحاء الوطن، ظهر خطباء فصحاء مثلوا هذه الجمعية أحسن تمثيل، ويأتي في مقدمة الإصلاح الشيخ عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، وأحمد توفيق المدني، وغيرهم ممن بقيت آثارهم مسجلة في صحف معية العلماء مثل " الشهاب " و" البصائر " و"السنة " و" الصراط " وغيرها من المصادر.

وقد كانت جمعية العلماء المسلمين تعقد مؤتمرات سنوية عامة بنادي الترقي بمدينة الجزائر، فكان خطباؤها يتبارون ويحاولون إبداء ما لديهم من براعة وموهبة في هذا المجال، ويتنافسون ويتحاورون. وقد ألقيت سبع عشرة خطبة في الاجتماع السنوي الذي انعقد سنة 1935، وكانوا في كثير من الأحيان يرتجلون الخطب ارتجالاً.

وإلى جانب الاتجاه الإصلاحي في الخطابة، نجد اتجاهاً آخر يركز على الناحية السياسية الوطنية، ويهاجم الاستعمار بجرأة وصراحة فائقة. ويمثل هذا الاتجاه خطباء الأحزاب السياسية، وعلى رأسهم " حزب الشعب "، وقد كان فيهم من الخطباء باللغة القومية من لا يختلف عن خطباء حركة الإصلاح فصاحة وبلاغة وقدرة على الارتحال. إلا أن الاختلاف يكمن في المواضيع المطروقة. فالطابع العام الذي تتسم به خطب المصلحين هو طابع الدين والوعظ، بينما يغلب على خطب رجال حزب الشعب طابع السياسة والحماسة والانفعال والهجوم على الاستعمار.

ولا يمكن أن نغفل اتجاهاً آخر يتزامن مع هذين المذكورين، وهو الاتجاه الطرقي الصوفي، حيث عرفت الجزائر عدداً ضخماً من الهيئات الصوفية، وكان لكل هيئة أتباعها ومريدوها، قاداتها وخطباؤها وعلماؤها، وكانت كل هيئة تجمع عيون أتباعها وخيارهم في كل مناسبة معينة، فتلقى الخطب ويتبارى الناس في تنميق الكلام. ومن أمثلة ذلك مؤتمر الطريقة العلوية الذي كان ينعقد بمدينة الجزائر كل سنة، ويدوم ثلاثة أيام تلقى خلالها الخطب. وقد حاول أحد أتباع هذه الطريقة أن يضع قواعد للخطابة الصوفية، فوضع مبادئ أهمها: الافتتاح بالذكر الحكيم ـ التجرد من الموضوعات السياسية، وعدم الخروج عن دائرة الدين ـ اتخاذ منبر للخطابة يرتفع قليلا عن الأرض.

وقد كانت هذه الاجتماعات السنوية لأتباع هذه الطريقة تعقد في مدن مختلفة، مما ساعد على انتعاش فن الخطابة. ولعل الصراع الفكري الذي كان على أشده بين هذه الاتجاهات المختلفة، أدى إلى إخصاب الخطابة وتنشيطها.

إن الحديث عن الخطابة عند المصلحين يوجّه الذهن مباشرة إلى زعيمهم الشيخ ابن باديس الذي سبق الجميع في الدعوة إلى الفكرة الإصلاحية. وهو في خطبه لا يركز عل غرض واحد، بل نجده حيناً يركز على الدين، وحيناً آخر يركز على الإصلاح، وأحياناً أخرى على السياسة والإصلاح معاً، وعلى التربية والأخلاق في أوقات كثيرة. ومن مميزات خطبه أنه لا يتكلف أو يتظاهر بالفصاحة، كما أنه لا يستخدم الخطابة لإظهار قدرته على القول، وإنما يستخدمها ليؤكد

أغراضه وأهدافه الإصلاحية والوطنية. كما أنه يمزج بين الإصلاح والسياسة الوطنية في مناسبات كثيرة.

أما عن أسلوبه فهو يمتاز بالوضوح والدقة، واختيار الألفاظ وتفصيل القول. ولكنه قد يستخدم السجع أحياناً قليلة، وقد يكون عفو الخاطر لا يقصد إليه قصداً.

ويأتي بعد الشيخ البشير الإبراهيمي في مقدمة الخطباء والبلغاء، فقد امتلك ناصية القول واستوعب البيان العربي، وتبحر في اللغة العربية وآدابها. وامتاز بالقدرة على توليد الكلام والموهبة الأدبية، وعُرِفَ بالارتجال. يقول عنه " ابن ذياب " في مقالة بعنوان " الخطابة والشيخ الإبراهيمي ":« فهالني أن أسمع الرجل يقول فيطيل القول، ولا يعوزه على ما قال برهان، فآمنت أن الرجل أخطب من سحبان ».

ولكن خطب الإبراهيمي الكثيرة لم يبق منها إلا القليل، لأنه كان يرتجلها ارتجالاً في معظم الأحوال، وهو متنقل في ربوع كثيرة من الوطن. ويخطب في محافل كثيرة داخل الوطن وخارجه، ولو جُمِعَت آثاره في هذا المجال لتغيّرت النظرة نحو الخطابة الأدبية في الجزائر.

كان الشيخ يمتاز بأسلوب خاص في النثر، خطابة أو مقالاً، فهو في تعبيره يميل إلى الجزالة والفخامة، ويعنى بأساليب البلاغة العربية من جناس وطباق وتورية وتشبيه واستعارة، وما إلى ذلك من أنواع البديع والبيان. لذلك فهو ينتمي إلى مدرسة البلغاء العرب المشهورين بالقدرة على توليد المعاني والاحتفال الذي يأتي عفواً دون أن يقصد إليه.

وهناك خطيب آخر اشتهر بالقدرة على الارتجال والنفس الطويل، وهو الشيخ الطيب العقبي الذي كان من رجال الحركة الإصلاحية البارزين، وقد عُرِف بخطبه الإصلاحية التي تهاجم البدع والخرافات، وتدعو إلى التحرر من رواسب الماضي.

وإذا أردنا أن نصف مختلف المواضيع التي تناولها الخطباء الجزائريون، نجد خطباً ذات موضوعات علمية تعالج قضايا الثقافة والعلم بالمعنى التقليدي. وكانت تلقى في مواقف علمية كافتتاح دروس التفسير أو ختمها، أو تأبين شخصية أدبية، أو إحياء ذكريات وفاتها، أو في تدشين

المدارس العربية الحرة، وهي تقريباً كلها خطباً أدبية خالصة. إلى جانب موضوعات دينية عالجتها الخطب التي تلقى في مناسبات دينية، كذكرى المولد النبوي الشريف، وشهر رمضان، وليلة القدر، وذكرى غزوة بدر، وأيام الجمعة.

وهناك موضوعات مختلفة تدور حول الزواج طوراً، وحول استقبال الوفود أطواراً أخرى. إلى جانب موضوعات سياسية سيطرت على خطب الأحزاب المختلفة، وموضوعات تربوية إصلاحية تخصصت فيها حركة الإصلاح.

وعلى العموم استطاع فن الخطابة في هذه الفترة أن يؤدي دوره الأدبي في الجزائر، حيث طرق أهم الموضوعات التي كانت تشغل بال الناس يومئذ. وعالجها في شجاعة وإقدام، بالرغم من اضطهاد المستعمر، وتضييقه الشديد على المثقفين باللغة العربية.

وختام القول: إن الخطابة في النثر الجزائري، وإن استندت على التراث العربي القديم، وتأثرت بالأساليب العريقة فيه، إلا أنها اختلفت من حيف المحتوى والموضوع من جهة، وتحررت من الزخرف اللفظي، ومالت إلى الوضوح والبيان العربي الأصيل من جهة أخرى.

وبقيام ثورة نوفمبر، فتحت مجالاً جديداً للخطباء، واستخدمت الخطابة أداة ووسيلة لتعميق المفاهيم الثورية في الأذهان ـ أذهان جنود جيش التحرير وأفراد الشعب بوجه عام ـ ولسوء الحظ ضاعت معظم هذه الخطب.

أما بعد الاستقلال، فإن الظروف تغيّرت، وتغيّر موضوع الخطابة لتغيّر الواقع، وربما أمكن القول بأنها ضعفت من حيث صياغتها، لأن العناية بها من الناحية الأدبية قد قلّت، وأصبح الهدف هو التعبير عن الفكرة وتوصيلها إلى الجماهير، بغض النظر عن الجمال .

**نماذج من الخطب** :

1/ الأمير عبد القادر الجزائرى :من خطبة قالها متوجها إلى جنوده يدعوهم لتلبية نداء الجهاد ،يقول ":فهيا بنا أيها المسلمون إلى الجهاد ،وهلموا إليه باجتهاد وارفعوا عن عواتقم برود

الكسل وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل ،أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا."

2/عبد الحميد بن باديس : في احدى خطبه عام 1937يشيد بالعربية والعروبة معا يقول:

"..أما بعد فحياكم الله أبناء العربية والإسلام وأنصار العلم والفضيلة ،حوربت فيكم العروبة حتّى ظن أن قد مات منكم عرقها ومسخ فيكم نطقها فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر وتهدر خطبائكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل ويهز كتابكم أقلامها فثصيب الكلى والمفاصل ".

3/ البشير الإبراهيمي : من خطبة ارتجلها بمناسبة اختتام تفسير ابن باديس القرآن ،وجاء فيها :" ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس .ولقد مضى بجلاله وروعته ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة ولا اختلجت من نعته شفتان بحرف ،لا زهدا فيه ولا عدم عرفان لحقه ولا غبنا لحقيقته ...وإنما هو كلام الله وبيت الله عقدا الألسنة بجلالها وحبسا النفوس على جمالها".